

الحجاج بالتمثيل في القرآن الكريم: سورة "البقرة" أنموذجا
*Argumenting by representation in the Noble Quran:
 Surat "al-Baqara" as example*

د.مقران فصيح *

عبد الناصر درغوم *

تاريخ النشر: 2020/12/30	تاريخ القبول: 2020/08/20	تاريخ الإرسال: 2020/02/19
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تعتبر آلية التمثيل إحدى الظواهر القرآنية المميزة، ويتجسد توظيفها الإستراتيجي في تحقيق أغراض كثيرة من أبرزها الحجاج، وعليه يحاول هذا البحث تسليط الضوء على هذا الموضوع من خلال دراسة باب التمثيل وأهميته وحجاجيته، ثم يعرض في جانبه التطبيقي لدراسة جملة من المداخل الإقناعية في الاستعمالات التمثيلية القرآنية، وذلك عبر دراسة حجاجية تحليلية لجملة الأمثال الواردة في سورة "البقرة"، والتي تبين جانبا من خصائص الحجاج وأساليبه في القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: التمثيل، الحجاج، القرآن الكريم، البلاغة الجديدة، الإقناع.

Abstract:

The representation mechanism is one of the distinctive Qur'anic phenomena, and its strategic employment is embodied in achieving many purposes, most notably the argument.

Therefore, this research attempts to shed light on this issue through studying the section of representation and its importance and argumentativeness, then in its applied aspect it studies a number of persuasive approaches in the Quranic representations, through an analytical argumentative study of a number of examples mentioned in Surat "Al-Baqara", which shows some of the characteristics and methods of argument in the Noble Qur'an.

المؤلف المرسل: عبد الناصر درغوم abdennassir.derghoum@univ-annaba.org

* جامعة باجي مختار – عنابة: fecih.mokrane@gmail.com

* جامعة باجي مختار – عنابة: abdennassir.derghoum@univ-annaba.org

Key words: representation, argument, noble Qur'an, new rhetoric, persuasion.

*** **

مقدمة:

تعد آلية التمثيل إحدى أبرز التقنيات الموظفة لتحقيق الأغراض الحجاجية؛ وذلك لما تتميز به من أبعاد لسانية وفكرية وجمالية، تجعل منها مدخلا إقناعيا بامتياز، ومن هنا كان لها الحضور البارز والدائم في كثير من الخطابات ذات المقاصد الحجاجية، وفي مقدمتها القرآن الكريم، وعليه نسعى لدراسة آلية التمثيل في سورة البقرة دراسة حجاجية، قصد معالجة إشكالية تتعلق بأبعاد الاستعمال الإستراتيجي لهذه الآلية، وكيفية توظيفها، لتتوصل بذلك إلى معرفة تقنيات الحجاج بالتمثيل الموظفة في القرآن الكريم.

1. مفهوم التمثيل:

التمثيل اسم جامع يدل على إيراد الأمثال لأغراض مخصوصة؛ وبصفة أدق فهو: "عقد الصلة بين صورتين، ليتمكن المخاطب من الاحتجاج وبيان حججه"¹، فالتمثيل إذن عملية ربط بين مجالين بوساطة مثل، ويتوسل بذلك المخاطب إقناع متلقي بحجج.

1.1. التأصيل اللغوي لمصطلح التمثيل:

- إن العمدة في آلية التمثيل هي المثل، وهو يطلق في القرآن الكريم ويراد به معنيان²:
- الأول: بمعنى المثل: أي وصف الشيء، نحو قوله تعالى {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ} [الرعد:35].
 - الثاني: بمعنى مطلق المشابهة من أي جهة كانت، سواء في الجوهر، أو الكيفية، أو الكمية، ومنه قوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى:11]، فعم ذلك النفي كل وجه للمشابهة بين الله تعالى وبين غيره.

2.1. العلاقة بين التمثيل والتشبيه:

التمثيل فرع عن "التشبيه" في علم البيان؛ لاشتراكهما في الصورة والغرض؛ فكل منهما يتطلب طرفين، ووجه تماثل، وأداة رابطة، والغرض الجامع بينهما هو بيان أحد الطرفين بالآخر؛ إذ كان المعنى المُمَثَّل في الطرف الثاني أقوى وأظهر³. هذا على الجملة، وإلا فبين التشبيه والتمثيل فرق دقيق، يقول عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ): "التشبيه عامٌّ والتمثيل أخصّ منه، فكل تمثيل تشبيهٌ، وليس كل تشبيه تمثيلاً"⁴، وذلك لتطلب التمثيل شروطاً لا يستوفيها كل تشبيه، فظهر أن العلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص كما سيأتي بيانه بعد.

3.1. العلاقة بين التمثيل والتصوير:

التمثيل نوع من التصوير؛ فهو يستحضر صورة المُمَثَّل حتى كأنه شيء منظور للعيان، قال ابن منظور "ومثَّل له الشيء: صَوَّرَه حتى كأنه ينظر إليه"⁵، فيصير التمثيل إذن معنى جامعاً لوظيفة خطابية، تتصل في جانبها اللساني النصي بآلية التشبيه؛ لكون المناظرة بين الشئيين كائنة عن طريق التراكيب النصية، وتتعلق في جانبها التلفظي التواصلي بمفهوم التصوير الذي يحدث في الذهن جملة عمليات عقلية متسلسلة، تستهدف إقامة روابط تصوّرية بين مجالي التمثيل (مجال الهدف، ومجال المصدر)؛ فيتوصل بها إلى إدراك أحد المتماثلين بالآخر من جهة الاستبدال؛ ذلك أنّ الصورة التي يرسمها التمثيل هي في حقيقتها "تعبير استبدالي يقوم فيه الشيء المشاهد أو الملموس -أي الصورة- بديلاً عن الفكرة أو المعنى أو المفهوم (والمفهوم هنا بمعنى (Concept))، سواء جاء هذا التعبير بالصورة للكشف عن كوامن نفس المتكلم، أو لمجرد الإمتاع، أو للتأثير والمحاكاة والإقناع"⁶، فتبين بهذا أن آلية التمثيل -في شقها الحجاجي خاصة- إنما تعمل وفق نسق ذهني محض؛ يقوم على فكرة الاستبدال الذي تتيحه المجالات المتماثلة في قاسم مشترك واحد أو أكثر، والغالب أن تكون الروابط الجامعة بين مجالي التمثيل متعددة،

وبقدر تعددها، وشدة تعالقتها، وقوة المناسبة بينها = تكون بلاغة الصورة التمثيلية وقوتها في التأثير والإمتاع، أو الحجاج والإقناع.

2.أهمية التمثيل:

يكتسي التمثيل أهمية كبيرة في الخطاب بصورة عامة، وفي الخطاب الحجاجي بصورة خاصة، وذلك لما له من الأثر الذي لا يخفى في إيضاح ما أُبهم، وتبيين من أشكل، ومن ثمة تهيئة المجال لإقناع المخاطب واستمالته، جريا على قانون التدرج في المحاجة؛ فينتقل به من المألوف المعروف إلى ما فوقه مما يجمله المخاطب أو يعارضه، فتكون بذلك سُلْمِيَّة المحاجة عاملا في اقتناع المخاطب وتسليمه، وذلك من أهم وسائل الحجاج.

1.2.الأهمية الخطابية:

نظرا لأهمية التمثيل في الخطاب، فإنه كان بابًا مطروقا في أرق الاستعمالات الخطابية بدءًا بالقرآن الكريم فالحديث النبوي الشريف، وانتهاءً بالراقي من كلام العرب الفصحاء شعرا ونثرا، يقول الزمخشري (ت538هـ): "ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلام الأنبياء والحكماء"⁷، وللتمثيل حضور بارز أيضا في خطابات الناس اليومية، فلا تكاد تخلو هي الأخرى من تمثّل بقصة أو حادثة، لما في ذلك من تحلية للتواصل وتقوية له؛ فإن غالبية الأمثال لا تنفك عن شيء من الطرافة والغرابة، وهو ما يعطي للكلام حلية ورونقا وجمالا، وأما التقوية فمرجعها لسُلطة التمثيل وحججته في نفسه⁸، وكذا فيما يحيل عليه كما سيأتي بيانه في قادم المباحث.

وما العناية بضرب الأمثال إلا دليل على فضل هذا الباب وأهميته؛ إذا هو وسيلة مثلى "لتقريب المراد وتفهم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به، فقد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره؛ فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير"⁹، فعلاوة عما ذكر من قبل في شرف التمثيل وفضله، ففيه أمر يتعلّق بطبيعة النفس؛ فهي

الحجاج بالتمثيل في القرآن الكريم: سورة "البقرة" أنموذجا

تأنس بالأشباه والنظائر، ما لا تأنس بما ليس فيه ذلك، وفي هذا المعنى يقول ابن القيم (ت 751هـ) "ففي الأمثال مِنْ تَأَنُّسِ النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق = أمرٌ لا يجحده أحد ولا ينكره، وكلما ظهرت الأمثال ازداد المعنى ظهورا ووضوحا، فالأمثال شواهد المعنى المراد، وهي خاصية العقل ولُبُّه وثمرته"¹⁰، وفي هذا إشارة إلى خاصية في النفس الإنسانية، من إنها -من حيث هي ذات عاقلة- فهي أسرع انقيادا وقبولا للقضايا التي يكون لها مثال يعضدها ويقويه؛ ويكون هذا التأثير في علاقة طرد مع اتضاح المثال وقربه إلى ذهن المخاطب وتصوّره، فإن قبول المعنى الممثل به مع التسليم بوجه المماثلة مؤذن بالتسليم للحجة القائمة على هذا التمثيل؛ فيصير التمثيل حينئذ استدلالا منطقيا بمقدمتين على نتيجة؛ ولا مناص عندئذ من القبول والاقترناع.

2.2. الأهمية الحجاجية:

لتوضيح أهمية التمثيل الحجاجية نسوق المثال التالي: زيد أسد؛ حيث صورة التركيب ترجع إلى النمذجة التالية: زيد كالأسد في الشجاعة: ففي هذا التمثيل المبسط نلاحظ كيف أن الحجة مركزة حول قضية محددة، وهي إثبات وصف الشجاعة لزيد؛ وتم التوصل إلى ذلك عن طريق التمثيل التصوري، فتم عقد المماثلة بين زيد والأسد (باعتبار الأسد رمزا للشجاعة) وحُصر وجه المماثلة بينهما في صفة الشجاعة؛ من حيث إنها أبرز في الأسد وأشهر فيه، فلما احتيج إلى إثباتها في زيد توسطنا في ذلك بقضيتين ممهدتين لنصل إلى النتيجة المرادة؛ وذلك ما توضحه المعادلة التالية:

$$(ق1 = الأسد شجاع) + (ق2 = زيد كالأسد) = (ن = زيد شجاع).$$

[حيث: ق = قضية، ن = نتيجة]

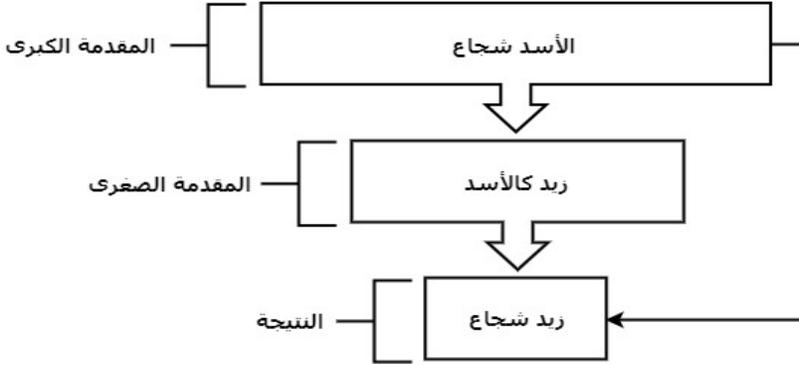
فالقضية الأولى (المقدمة الكبرى): الأسد شجاع.

والقضية الثانية (المقدمة الصغرى): زيد كالأسد.

والنتيجة: زيد شجاع.

ويلخص ما سبق الترسيمة التالية (من اجتهادنا):

الشكل 01: ترسيمة توضح السيرورة الاستدلالية للتمثيل الحجاجي.



فهذه السيرورة الاستدلالية المتدرجة من شأنها أن تهدي الفكر إلى الحجة المقصودة من تمثيل المخاطب، وإن لم يصرح بها؛ فيكون ذلك أدعى لتسليمه بحجية القضية ومقبوليتهما، وذلك من حيث إنها استدلال موجه ينتهي بالضرورة إلى نتيجة واحدة يستوي فيها كلا طرفي الخطاب، وتلك هي طبيعة المحاجة من حيث إنها "تظهر حينما يُتقدم بادعاء محل نزاع -النتيجة- ثم تأتي المحاولة للاستدلال عليه بالإتيان بمجموعة من الادعاءات الداعمة -المقدمات- يرى المحاجج أنها محل اتفاق عند المقصود بمحاجته (Audience) من جهة، كما يرى أن فيها دليلا منطقياً على الادعاء محل النزاع -النتيجة- من جهة أخرى"¹¹، وهكذا ينتقل المخاطب باستعمال التمثيل من المتفق عليه إلى المختلف فيه، في بنية حجاجية محكمة، ينتهي منها إلى إقناع المخاطب بدعواه.

3. حجاجية التمثيل:

يُتسم التمثيل بأهمية كبيرة في الاستعمال الحجاجي للخطاب؛ من حيث هو آلية لغوية لها القدرة على استحضار عوامل خارجية وتوظيفها لأغراض إقناعية، وذلك من خلال ثلاثة مداخل هي:

1.3. المدخل النفسي:

يبين عبد القاهر الجرجاني المدخل النفسي في حجاجية التمثيل، فيقول: "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن "التمثيل" إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في

الحجاج بالتمثيل في القرآن الكريم: سورة "البقرة" أنموذجا

معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته؛ كساها أبهة، وكسها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صباة وكلفا...¹²، فهو يبين بهذا أن من وظائف التمثيل الحجاجية إثارة الوجدان، حتى إنه ليحرك النفس، ويستثير القلب، ويهيج الفؤاد، فتنبعث لذلك كله آثار وجدانية من قبيل الصباة والكلف، والإثارة والشغف، وكلها تصب في جانب الإقناع العاطفي والتأثير النفسي.

2.3. المدخل العقلي:

ترجع وظيفة التمثيل في الإقناع العقلي إلى ثنائية (المحسوس / المجرد)؛ فالتمثيل بعدّه عملية عقلية فإنه يقيم في الذهن رابطة تصويرية بين المحسوس (الحاضر) والمجرد (الغائب)، ويستدل على هذا بذلك؛ إذ المحسوس الحاضر أقرب في التصور والتعقل من المجرد الغائب، وفي هذا يقول مسكويه (ت421هـ) في جواباته لأبي حيان التوحيدي (ت414هـ): "إن الأمثال إنما تضرب فيما لا تدركه الحواس مما تدركه، والسبب في ذلك أنسنا بالحواس، وإلفنا لها منذ أول كونها، ولأنها مبادئ علومنا، ومنها نرتقي إلى غيرها، فإذا أخبر الإنسان بما لا يدركه، أو حدث بما لم يشاهده، وكان غريبا عنه؛ طلب له أمثالا من الحس، فإذا أعطى ذلك أنس به، وسكن إليه لإلفه له"¹³، فيبين مسكويه هنا السبب الذي يكمن وراء قوة الحس الإقناعية وهو الألف والإلف؛ فالإنسان منذ نشأته فإن قدراته الإدراكية تكون محدودة بالأعيان التي يبلغها من خلال حواسه الخمسة، وأما المجردات فإن وعيه بها يكون متأخرا ولا يتأتى إلا بعد اكتمال جملته العصبية في الدماغ، ومن هنا يكون تعقله للأشياء وتصوره لها مبنيا على ما يدركه الحس أكثر مما يتخيله الذهن، وذلك ما يوافق طبيعة التمثيل الحجاجية؛ من حيث نقلها المتخيل في عالم المجردات إلى المنظور في عالم المحسوسات؛ فيكون بذلك أكثر اقتناعا به، واطمئنانا إليه كما سبق.

3.3. المدخل البياني:

يضيف محمد رشيد رضا ملمحًا آخر يتعلق بطبيعة الذهن في إدراك المعاني ودور التمثيل في تبينها وتقريبها للعقل من خلال المدخل البياني، فيقول: "إن المعاني الكلية تعرض للذهن مجملة مهمة، فيصعب عليه أن يحيط بها، وينفذ فيها فيستخرج سرها، والمثل هو الذي يفصل إجمالها، ويوضح إبهامها، فهو ميزان البلاغة وقسطاسها، ومشكاة الهداية ونبراسها"¹⁴، فظهر بذلك أن التمثيل في هذا الجانب إنما يتخذ بعدا حجاجيا من خلال آليات البيان والتبيين؛ حيث يعمل على توضيح الصور المهمة، والمعاني الكلية المجملة، بأن يسوق للمتلقي نظائر ذلك في تراكيب واضحة مبيّنة، تقرب شوارد المعاني، وتبسط غوامض المباني، وذلك ما يسهل مهمة اقتناع الملتقي وتسليمه، من حيث وقوع التبيين والتفهم، وقد سبق أن النفس أقرب انقيادا لما تتبينه وتألفه وتنأس به، مما تجله وتستوحشه وتنفر عنه.

4.دراسة النماذج:

إن الواقف المتدبر عند أي القرآن الكريم -لاسيما آيات التمثيل منها- ليستري انتباهه التوظيف البارز للأمثال بطرائق شتى، تشترك كلها في سياق حسن السبك، متين الحبك، في نسق يعلوه الإيجاز، ونظم يكسوه الإعجاز، ونحاول فيما يلي أن نستبين شيئا من الخصائص الحجاجية لهذه التمثيلات، عن طريق سبر الطاقات الإقناعية للأمثال الموظفة، وربطها بسياق الموقف، وأحوال المخاطبين، والمقاصد العامة للخطاب القرآني.

1.4.النموذج الأول: قوله تعالى {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ *} أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ* يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}{البقرة:17-20}:

الحجاج بالتمثيل في القرآن الكريم: سورة "البقرة" أنموذجا

تأتي هذه الآيات في سياق ذكر المنافقين، وذلك بعد استيفاء ذكر أحوال الناس وأقسامهم من حيث الإيمان والكفر؛ فكانوا في ذلك على ثلاثة أقسام: مؤمنين، وكافرين ومنافقين.

وجاء في إثر ذكر حال أهل النفاق بيان لمثلهم، وقد تقدم أن "التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني [...] كساها أهبة، وكسها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من ناراها..."¹⁵، وقد مثل الله تعالى حال هؤلاء كمثل من أشعل نارا بغية الدفء والضوء، فلما أضاءت ما حوله وحصل له بذلك نوع نور وسرور، ذهب عنه ذلك وسلبه، فذهب ما في النار من الإشراق، وبقي ما فيها من الإحراق، وبقي ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، وظلمة الظلام بعد ذهاب النور، فهو بذلك في {ظَلَمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} [النور:40].

ونستطيع من خلال ما سبق أن نستشف جملة معالم من الاستعمال الحجاجي لهذا التمثيل؛ حيث تم تشبيه حال المنافقين في إبدائهم الإيمان وإضمامهم الكفر، بحال محسوسة قريبة للذهن، دانية للعقل، فجاء ذلك في مشهد تصويري يستطيع المتلقي تخيله فكان ذلك أبلغ في تقريب المعنى للنفس، وأشد في تثبيت الصورة في الذهن؛ فإن الكلام المجرد عن تصويرية التمثيل يكون بمثابة المتخيل، وهو بذلك ينتهي لعالم المدركات بالعقل، وكما سبق فإن المدركات بالحس أبلغ تأثيرا، وأشد إقناعا، يقول الجرجاني "وإن كان [التمثيل] حجاباً، كان بُرهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبَيَّانه أبهـر"¹⁶.

ومن هنا يأتي دور التمثيل في كشف حجب المعاني المجردة في تعاليمها، وإنزالها إلى مستوى المحسوس المبصر، فتصير الغيبة شهادة، وينقلب الوهم حقيقة، والشك يقينا، فلا يصير للمخاطب بد من التسليم والإذعان، وهذا ما يقرره الزمخشري؛ إذ لضرب الأمثال عنده "شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد. وفيه تبيكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامع الأبى"¹⁷.

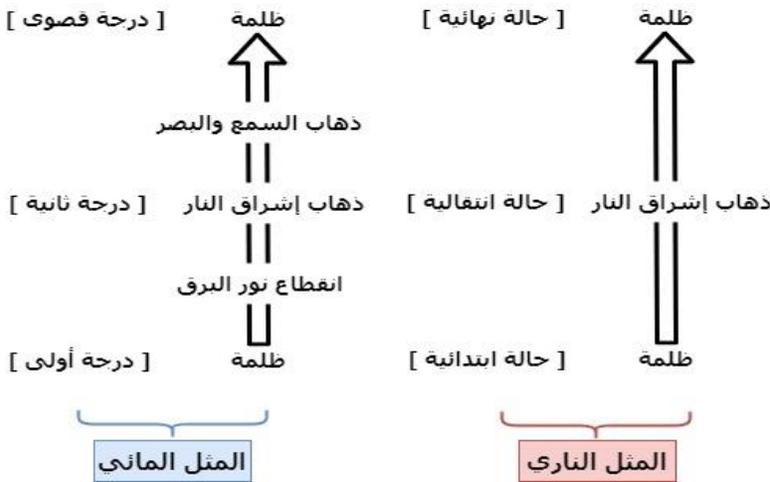
ثم يبرز في هذا التمثيل ملمح حجاجي مميز، وهو بناء المعنى على الممثل به وتنزيله منزلة الممثل له، وذلك على اعتبار أن "المثل قد كان وسيلة لإحضار صورة الممثل له في ذهن المخاطب ونفسه"¹⁸، ونظام التركيب المعتاد يقتضي العودة بعد ذلك إلى الممثل له متجاوزا في ذلك المثل وما يتصل به، غير إنه قد يُخالف النسق في بعض الصور والتراكيب كهذا التمثيل؛ حيث يواصل الكلام وتفريعاته بناء على تفاصيل الممثل به؛ فصار هو الأصل بعد أن كان فرعاً، وصار هو الحقيقة بعد أن كان مجازاً، ويدل لذلك تنمة التمثيل في الآيات التي جاءت بعد {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ* يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأُو فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}{البقرة:19-20}، ففي هذا الجزء الثاني مثل الله تعالى حال المنافقين مع أدلة القرآن الكريم وآياته بمثل مائي –وسبق قبله المثل الناري- فمثل حالهم بمثل صيب وهو المطر النازل الكثير، وفيه ظلمات ورعد وبرق؛ فدلائل القرآن وبراهينه كصواعق الرعد، وآياته البينة كلوامع البرق، والمنافقون فيه ذلك بين انتفاع قليل {كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأُو فِيهِ} وبين ابتلاء عظيم {يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ} و{يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ}، فتبين من هذا كيف تواصل الحديث عن تفاصيل الصورة الممثلة دون حقيقة المعنى المراد، وهذا أسلوب رفيع في البلاغة غير إنه دقيق في الاستعمال؛ إذ قد يصنف على أنه مغالطة منطقية، وذلك إن جنح صوب التثبيء (Reification)¹⁹، وإلا فهو يجعل المعنى الممثل به حقيقة، ويجعله بمثابة المعنى المراد لنفسه لا المراد لغيره، ولقربه من الحس فهو قريب من الذهن، دان إلى العقل والتصور، وعليه فتركيب الحجة عليه يعطيها قوة وسلطة، ونفوذاً وفعالية في الاقتناع والتسليم.

وبضم التمثيلين السابقين –الناري والمائي- نلاحظ سلمية حجاجية متدرجة؛ حيث تدرج التوصيف القرآني في كشف حال المنافقين بين درجتين، مقدما أخفهما، فذكر في المثل الناري أن مثلهم في إعراضهم في نور الإيمان كمثل من عدم إضاءة النار بعد

الحجاج بالتمثيل في القرآن الكريم: سورة "البقرة" أنموذجا

استيقادها (ظلمة => إضاءة => ظلمة)، ثم شدد الوصف في المثل المائي فجعل براهين القرآن ودلائله وحججه كالصواعق على آذانهم، فهي تقرعهم بالفرع، وتزرع في نفوسهم الجزع (ظلمة => إضاءة + رعد وبرق => ظلمة + ذهاب السمع والبصر + خوف)، وهكذا يستبين حالهم أحسن بيان، ويُزجر عن الاتساء بهم أبلغ زجر، وكل هذا في سلمية مركبة، وتدرج متينين، وهو ما تلخصه الترسيمية التالية (من اجتهادنا):

الشكل 02: ترسيمية توضح السلمية الحجاجية في المثلين الناري والمائي.



2.4. النموذج الثاني: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكُمْ عُمِّي فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ} [البقرة:171]:

تأتي هذه الآية في سياق بيان مثل الكفار، وقد تقدم ذكر طرف من خبرهم في الآيات قبل، وفي هذا التمثيل شُبِّهَ حال من يدعوا الكافرين بحال من يصيح بغنم وهي لا تفقه عنه إلا الصوت والنعمة، فكذلك "مثل الذين كفروا فيما ذكر من انهماكهم فيما هم فيه؛ وعدم التدبر فيما ألقى إليهم من الآيات"²⁰، ويؤكد هذا المعنى ما ختمت به الآية من ذم لمن هذا حالهم، فقال {صُمُّ بَكُمْ عُمِّي فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ} [البقرة:171]، والتمثيل إذا كان في سياق الذم كان له من التأثير والقوة الشيء الكبير، يقول الجرجاني " وإن كان [التمثيل]

ذمّاً، كان مسَّهُ أوجع، وميسَّمُه أذع، ووقعه أشده، وَحَدُّه أَحَدٌ²¹، وبيانه في هذه الصورة أنه كما صم الكافرون عن سماع الهدى بعد إذ جاءهم = فكذلك صمَّت آذانهم، وكما بكموا عن النطق بالحق تصديقا له، واعترافا به = كان بكم أفواههم، وكما عموا عن رؤية الآيات البيّنات، والبراهين الساطعات = كان عى أبصارهم، فإنها وإن بقيت من حيث هي جوارح في البدن، فإنهم لما حُرِّموا الانتفاع بها؛ جعلت بمثابة المعدومة، وهذا أسلوب حجاجي معتمد في الوحيين؛ أن يُجَعَلَ عدم الانتفاع بالشيء بمثابة عدمه أصلا؛ ومنه قوله -صلى الله عليه وسلم- للمسيء في صلاته "ارجع فصلّي؛ فإنك لم تصلّي"²² مع أنه قد وقع منه ما يسمى صلاة، ولكن لما لم تكن صلاته على الهيئة الصحيحة المرجوّ نفعها؛ جعله النبي -صلى الله عليه وسلم- بمثابة من لم يصل أصلاً.

ومن تقنيات الحجاج الموظفة في هذا التمثيل أيضا أسلوب الإيجاز بالحذف، وبيانه في تحليل التركيب التمثيلي إلى المكونين التاليين:

- م1: مثل الرسول في دعوته للكفار كمثل الراعي ينعق بالغنم.
- م2: مثل الكفار في إعراضهم عن دعوة الرسول كمثل الغنم في إعراضها عن الراعي.

والنتيجة من هذا المزج مع الحذف المركّب: أن "ذَكَرَ تعالى بعض هذه الجملة، وبعض هذه، وذلك المذكور على المحذوف، وهذه نهاية الإيجاز"²³، وكثيرا ما يأتي نظم القرآن على سنان الإيجاز التي من أنواعها الحذف، وقد يكون ذلك في مقامات أبلغ من الذكر، وأجود من الإبانة، وقد يكون في سياقات أوقع في النفس، وأثر في القلب، مما لو أُبين المحذوف، وذلك "باب دقيق المسلك، لطيف المآخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدر أنطلق ما تكون بيانا إذا لم تبن"²⁴.

الحجاج بالتمثيل في القرآن الكريم: سورة "البقرة" أنموذجا

3.4. النموذج الثالث: { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة:26]:

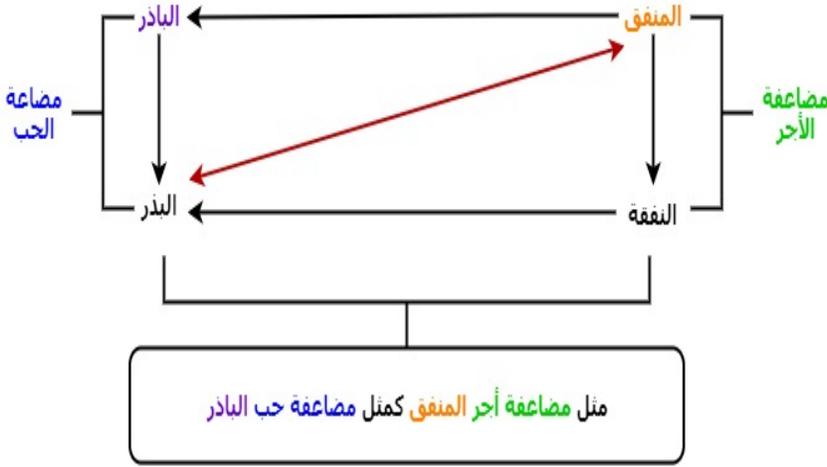
ضرب الله تعالى هذا المثل في سياق بيان مضاعفته لأجور المتصدقين؛ فذكر لها هذا المثل أن كان "أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة"²⁵، وفي ثنايا هذا التمثيل ندب للإنفاق وتحضيض إليه، ودعوة له وتحريض عليه، وفي سياق الاحتجاج لذلك جيء بصورة الإنبات للسنابل، "وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتنقاد النفس مدعنة للإنفاق سامحة بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة"²⁶، فمكمن الحاجة هنا في تضافر الصورتين -الحسية والمعنوية-، فجاء هذا التمثيل ليقوي أحرهما بأولاهما، من باب تأكيد المجرى المتصور، بالمحسوس المبصر، وذلك غاية البيان.

وعلاوة على حجاجية التصوير ففي مدلول هذا التمثيل معنى حجاجي من حيث هو مقارنة موجهة؛ فإن الإنسان لو علم أنه يبذر حبة واحد فتنت له مئة سنبل؛ فإنه سيكون أحرص الناس على ذلك²⁷، فكذلك دلالة التمثيل الإقناعية؛ فإنه يوجه المخاطب -عبر مقارنته بين الإنفاق والإنبات- إلى الرغبة في التصديق مقتنعا بجزائه، مستحضرا صورة ثوابه، وهو تضاعف الأجور والحسنات كما تتضاعف السنابل والحبات.

ثم في هذا التمثيل توظيف حجاجي لألية الحذف كما في التمثيل السابق؛ وتكاد تكون آلية الإيجاز بالحذف ملازمة للتمثيل القرآني، حتى قال ابن القيم: "...وهذا كثير في أمثال القرآن، بل عامتها ترد على هذا النمط"²⁸، لكن الحذف في هذا التمثيل على غير نمط سابقه؛ حيث شمل هذا التمثيل في مكوناته أربعة أشياء: المنفق، والنفقة، والبذر، والباذر، ثم إنه لما كان واقعا بين صورتين فإن الأسلوب القرآني أوجز الصورة المركبة منهما بالافتقار على أهم عنصر في كل منهما؛ فاكتفى من الصورة الأولى (المنفق والنفقة) بأهمهما وهو المنفق؛ إذ هو المقصود ببيان الحال والجزاء، وحذفت النفقة لدلالة اللفظ عليها من جهة المناسبة، وأما الصورة الثانية (البذر والباذر) فاستغنى بذكر البذر لأنه محل

المضاعفة والتكثير، دون البادر إذ لا تعلق له بذكر الصورة المقصودة في التمثيل²⁹، ويزيد هذا وضوحا الترسيمة التالية (من اجتهادنا):

الشكل 03: ترسيمة توضح آلية الإيجاز والحذف المركب في الآية.



ثم إن هذا التمثيل قد أعطى للمعنى المقصود قوة تأثيرية بالغة، وذلك شأن التمثيل إذ جاء في أعقاب المدح، قال الجرجاني في سياق بيان مواقع التمثيل وتأثيره: "... فإن كان [التمثيل] مدحاً، كان أبهى وأفخم، وأنبى في النفوس وأعظم، وأهز للعطف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعته للمادح، وأقضى له بغرّ المواهب المنائح، وأسير على الألسن وأذكر، وأولى بأن تغلقه القلوب وأجدر"³⁰.

وعلى هذا تتبين بعض معالم التوظيف الحجاجي في هذا التمثيل من خلال بلاغة التصوير المركب من صورتين؛ إحداهما معقولة يراد تبيينها وهي صورة مضاعفة أجور المنفقين، والأخرى محسوسة يراد التبيين بها وهي صورة مضاعفة حبات السنابل، وكيف تم عرض هذا التصوير البديع في نسق موجز بليغ، أدى الفكرة بتمامها من غير إخلال، وجلى الفكرة بكمالها من غير إملال.

4.4. النموذج الرابع: {يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ

الحجاج بالتمثيل في القرآن الكريم: سورة "البقرة" أنموذجا

وَابِلٌ فَتَرْكُهُ صِدًّا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْكَافِرِينَ {البقرة: 264}:

تأتي هذه الآية في لحاق الآية السابقة؛ فبعد أن ندب الله تعالى العباد للمسارعة في اغتنام الأجور العظيمة بالإنفاق في سبيله، ورغهم في ذلك بوعد المضاعفة للثواب، جاء هنا في سياق تحذيرهم مما يبطل ثواب أعمالهم، ويذهب أجور نفقاتهم، وهو المن والأذى. وفي سياق تقرير هذا المعنى والاحتجاج له ضرب الله تعالى له مثلا بالصفوان وهو الحجر الأملس يعلوه التراب، حتى ليظنه الرائي أرضا خصبة تنبت الزرع، وتجلب النفع، فإذا بوابل وهو المطر الغزير ينزل عليها، فيزيل ما عليها من تراب؛ فإذا هي تنكشف على حقيقتها ولا يبقى من أثر ما كان عليها شيء؛ فكذلك أعمال المرئيين تضمحل يوم القيامة، ولا يجدون لها أجرا ولا ثوبا، بل يجزون عليها نكالا وعقابا³¹.

وفي هذا التمثيل الموظف في هذه الآية نلاحظ ملمحا حجاجيا ينتظمه وجهان في

التأويل³²:

- الأول: العمل = التراب، المرئي = الصفوان، والمن والأذى = الوابل؛ فيكون المعنى: أن إنفاق المرئي كالبذر على صفوان عليه تراب، فظاهره خير، وباطنه ضير، فإذا زيد على ذلك المن والأذى كان كالمطر الشديد النازل على ذلك الصفوان فيتركه صلدا، ويذهب عنه ما كان من ظاهر العمل.
 - الثاني: قريب من الأول، إلا أن المحل هو يوم القيامة؛ حيث يظن المرئي أن له فيما أجرا، حتى إذا جاء لم يجده شيئا، فهو كمن ظن أن بذره للأرض يؤتي أكله، فإذا به ينكشف له أنه إنما بذر على أرض صلدة، غرّه ما كان عليها من تراب، حتى إذا نزل عليها مطر شديد بان له ما كان يحذر، وذهب عناؤه سدى.
- ثم إن هذين الوجهين يشكلان الطرف الثاني من تمثيل آخر صُدِّرت به الآية؛ حيث نبى الله تعالى عن إبطال الصدقات بالمن والأذى، وضرب لذلك مثلا بالذي ينفق ماله رياء الناس حال كونه غير مؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فهذان طرفان في التمثيل الأول، ثم

عقد للطرف الثاني من التمثيل الأول تمثيلاً آخر، وهو أن المنفق المرئي حال كفره فإنه كمثل وابل شديد ينزل من السماء على صخر أملس فيزيل ما عليه من تراب فيتركه صلداً كأن لم عليه تراب أصلاً؛ فصارت الصورة مركبة من تمثيلين؛ فهو تمثيل على تمثيل، وبدل لذلك ما ختمت به الآية بقوله تعالى {لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا} أي: "مِمَّا أَنْفَقُوا، فَعَبَّرَ عَنِ النَّفَقَةِ بِالْكَسْبِ، لِأَنَّهُمْ قَصَدُوا بِهَا الْكَسْبَ، فَضَرَبَ هَذَا مَثَلًا لِلْمُرَائِي فِي إِبْطَالِ ثَوَابِهِ، وَلِصَاحِبِ الْمَنِّ وَالْأَذَى فِي إِبْطَالِ فَضْلِهِ"³³.

ومن هنا يظهر كيف "أوسع الله تعالى هذا المقام بياناً وتزجيلاً وزجراً بأساليب مختلفةً وتفنُّناتٍ بديعة"³⁴؛ حيث جاء التمثيل الأول لغرض الإقناع بالترهيب والتفطيع من مغبة ممثلة المنفق المرئي الكافر، وجاء التمثيل الثاني في معقد التحذير من ضياع الأجور، واضمحلال الحسنات الكثيرة المضاعفة، وهو بهذا شديد الاتصال بالتمثيل السابق في قوله تعالى {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}{البقرة:261}، وعلاقة الاتصال من جهة العكس والمناقضة حيث "روعي في هذا التمثيل عكس التمثيل لمن يُنفق ماله في سبيل الله بحبته أغلث سبعمائة حبة"³⁵.

ومن هنا يكون المدخل الإقناعي الموظف هو من قبيل الحجة بالمقابلة؛ فبعد تبين محاسن الإنفاق مع الإخلاص، استدركه ببيان مغبة الرياء مع المن والأذى، وذلك أقوى في الإقناع، وأجدى في التأثير، وعلة ذلك عند حازم القرطاجني (ت684هـ) أن "للنفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها، والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها، تحريكا وإيلاعا بالانفعال إلى مقتضى الكلام؛ لأن تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعا من سنوح ذلك لها في شيء واحد، وكذلك حال القبح، وما كان أملكك للنفس وأمکن منها فهو أشد تحريكا لها، وكذلك أيضاً مثول الحسن إزاء القبيح أو القبيح إزاء الحسن مما يزيد غبطة بالواحد وتخليا عن الآخر؛ لتبين حال الضد بالمثل إزاء ضده. فلذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيبا"³⁶.

الحجاج بالتمثيل في القرآن الكريم: سورة "البقرة" أنموذجا

فتبين من هذا التمثيل عدة مداخل حجاجية، تعاضد بعضها في نسق متراكب، أنتج لنا صورة بديعة النظم في إيجاز، تجلت لنا بعض ما فيها من أسرار الإعجاز، {وَتِلْكَ الْأَمْثُلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [العنكبوت:43].

5.4. النموذج الأخير: {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ آتِبِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة:265]:

تأتي هذه الآية في خاتمة عقد التمثيل الذي انتظمته قضية الإنفاق؛ فبعد أن حث الله تعالى عليه مرغبا فيه بمضاعفة الأجور كما تتضاعف السنابل، رهب من عاقبة الرياء وإتباع النفقة متئا وأذئى، ممثلا ذلك بحال الصفوان إذ ينزل عليه وابل فيتركه صلداً، فناسب بعدُ أن يذكر حال المخلص في إنفاقه وإن كان معناه متضمنا في ما قبله، ولكنه أفرد بالتمثيل زيادة في الاهتمام، ومبالغة في الإقناع والإفهام.

ومثل الله تعالى في هذه الآية للإنفاق الخالص لوجهه بمثل بستان على مرتفع من الأرض، أصابه مطر غزير، فأثمر هذا البستان ضعفين، فإن لم يصبه مطر غزير لم يعدم مطرا خفيفا يكفيه على كل حال، وذلك لجودة موقعه، ولطيب عنصره³⁷، وكذلك حال النفقة الخالصة؛ فإنها إن كانت كثيرة كان ثوابها على قدرها، وإن كانت قليلة {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [هود:115].

ومن خلال هذا التوظيف التمثيلي نلاحظ جملة مداخل حجاجية؛ تجسدت في تورية المعنى وعدم الإخبار به من جهة التصريح كما في التمثيل بتضاعف السنابل، وإنما أخفي المعنى في تضاعيف السرد المصور بالجنة والوابل، وتركت مهمة اكتشاف المقصود على المتلقي ليكون ذلك أوقع في قلبه، و أبلغ في نفسه، يقول الجرجاني: "أنس النفوس موقوفٌ على أن تُخرجها من خفيِّ إلى جليِّ، وتأتيها بصريح بعد مكثيِّ، وأن تردّها في الشيء تُعلِّمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقمتها به في المعرفة أحكم؛ نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعمّا يُعلّم بالفكر إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد

من طرق الحواسِ أو المركز فيها من جهة الطبع وعلى حدِّ الضرورة = يفضلُ المستفادَ من جهة النَّظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغِ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: ليس الخَيْرُ كالمُعانية، ولا الظنُّ كاليقين، فلهذا يحصل بها العلمُ هذا الأُنْسُ أعني الأُنْسُ من جهة الاستحكام والقوة³⁸، فيشير الجرجاني هنا إلى سرِّ تأثيرية هذا النوع من التمثيل؛ فإنه يصور المعنى في قالب فيه من الخفاء مما يحرك الذهن لاكتشاف معناه، والظفر بحقيقته، فإذا كان ذلك كذلك أوقع في النفس لذة الكشف، وطرب الوجدان، ويزيد ذلك قوة أن تكون الصورة المشيرة (الممثل بها) أقرب إلى حس المتلقي من الصورة المشار إليها بالتمثيل؛ فإن ذلك يزيد من درجة الاقتناع عند المتلقي لأنه أوثق بما يدركه بحواسه مما يدركه بعقله، كما سبق بيانه من قبلُ.

ثم يضيف الجرجاني ضرباً آخر من الأُنْسِ الحاصل في التمثيل، فيقول: "وضربٌ آخر من الأُنْسِ، وهو ما يوجبه تقدُّمُ الإلف، كما قيل: مَا الحُبُّ إِلَّا للحبيبِ الأوَّلِ، ومعلومٌ أن العلم الأوَّلَ أتى النفسَ أولاً من طريق الحواسِّ والطباع، ثم من جهة النظر والرؤية، فهو إِذْنٌ أَمْسُ بها رَجْماً، وأقوى لديها ذِمَّماً، وأقدم لها صُحْبَةً، وأكُدُّ عندها حُرْمَةً"³⁹، فهذا الضرب من الأُنْسِ قريب من الأوَّلِ لكن بينهما فرقا دقيقا، وهو أن أثر الأُنْسِ الأوَّلِ الذي يستجلبه إنما هو من جهة القوة والاستحكام، وذلك بالاعتماد على مدركات الحواس في الاستيثاق من مدركات العقول، وأما الأُنْسِ الثاني فمن جهة تقدم الإلف والتعود؛ فإن المعنى الممثل به لما كان من خبرات المتلقي القبلية؛ كان من لازم ذلك أن يكون مألوفاً لديه، معروفاً متعوداً عليه، ومن هنا يستمد التمثيل حجاجيته؛ أي بنقل المتلقي من المألوف المعروف إلى غيره، فيستمد الآخر قوته من الأوَّلِ، فيكتسب المعنى المصوَّر حينئذ في النفس ألفة، وفي الذهن معرفة، فيصير أقرب للقبول والإذعان، وتلك غاية الحاجة.

ثم لهذا النوع من التمثيل سرٌّ آخر في قوة تأثيره، وسلطة تعبيره، وهو الجمع بين المتباينات، والضم للمفترقات، يقول الجرجاني: "لتصويرِ الشبه من الشيء في غير جنسه وشكله، والتقاطِ ذلك له من غير مجلته، واجتلابه إليه من الشَّقِّ البعيد = بابٌ آخر من

الحجاج بالتمثيل في القرآن الكريم: سورة "البقرة" أنموذجا

الظرف واللطف، ومذهبٌ من مذاهب الإحسان لا يخفى موضعه من العقل [...] وهكذا إذا استقرت التشبيهات، وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشدَّ، كان إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس له أطرب، وكان مكانه إلى أن يحدث الأريحية أقرب، وذلك أن موضع الاستحسان، ومكان الاستظراف، والمثير للدفين من الارتياح، والمتألف للنافر من المسرة، والمؤلف لأطراف البهجة = أنك ترى بها الشيئين مثليين متباينين، ومؤلفين مختلفين⁴⁰، وبيان ذلك في التمثيل المدروس هو بُعد ما بين صورتَي الممثل له، و الممثل به، أي بُعد ما بين صورة الجنة المرتفعة وإصابة الوايل لها، وصورة من ينفق أمواله مخلصا من قلبه، ثابتا بها فؤاده، فليس بين الصورتين علاقة مباشرة، لكن عقد المماثلة بينهما في حسن نسق، وبلغ نظم، يجعل منهما صورة واحدة مركبة، تستمد قوتها التأثيرية في جذب انتباه المتلقي، واسترعاء فكره، ليتدبر ما بين الصورتين، ويتأمل ما بين الفكرتين؛ فيتحصل لديه بعد إمهال للفكر، وإعمال للعقل وشائج الصلة بين المختلفات، وعلائق القرى بين المتباينات، وهو ما يحدث -حسب الجرجاني- الاستحسان والاستظراف، والعجب والطرب، والمسرة والبهجة، وكلها عوامل تقود للتسليم بفحوى الخطاب، والانقياد لموضوع المحاجة.

خاتمة:

نأتي إلى ختام هذا المقال بعد أن استعرضنا جملة مباحث فيه، تعلقت بموضوع الحجاج بالتمثيل واستراتيجياته التواصلية، وذلك من خلال معالجة نظرية ثم تطبيقية لآيات التمثيل في سورة "البقرة"، وعليه نذكر النتائج التي أسفر عنها البحث مجملة فيما يلي:

- أسلوب التمثيل أحد الإستراتيجيات الفعالة التي أكثر القرآن الكريم من استعمالها وفق أنماط عدة، ولأغراض متنوعة، أبرزها الاحتجاج للمعنى الممثل له، وذلك لما تحويه التمثيلات من طاقات في الإقناع والحجاج عبر تصوير المعنى "الهدف" بطريقة تجعل المتلقي يسلم بالقضية المعروضة في المعنى "المصدر".

- الغالب في التمثيلات القرآنية المدروسة أن يمثل المعنى العقلي المجرد بمعنى مادي محسوس، وقد أفاض الجرجاني وغيره في بيان أسرار ذلك، وأرجعها إلى ما أسماه بـ"الأنس"، وله صور وكيفيات وأضرب تجعله آلية حجاجية بامتياز؛ حيث يستغل مداخل النفس البشرية وما تألفه ليعرض عليها ما يريد؛ فيسهل قبولها له دون عناد، ويستيسر رضاها به دون نفور.
- ترتكز آلية التمثيل الحجاجية في فعاليتها على قوة الروابط التي يقيمها الممثل بين مجالي المصدر والهدف؛ فكلما أجاد إبانة الروابط بينهما، كان تعالق المجالين أقوى، وصورة التقارب بينهما أظهر، وهو ما يزيد في اقتناع المتلقي بالقضية المطروحة؛ حيث تصير المسألة حينئذ سيرورة استدلالية؛ ينتقل فيها الذهن بسلاسة من قضية مسلم بها إلى أخرى محل الحاجة.
- إن بلوغ الغاية القصوى من حجاجية التمثيل يكمن في معرفة الممثل بخلفية المتلقي وسياقاته -لاسيما الثقافية منها-؛ إذ على أساس من ذلك كله يتم اختيار مجال الهدف؛ فكلما كان قريبا لنفس المتلقي مألوفا، وكلما كان دانيا لذهن المخاطب معروفا = كان ذلك أحظ لبلوغ درجة "الأنس" بين المتلقي والتمثيل وعندئذ يحصل التسليم والاقتناع، وتنجح بذلك عملية الحجاج.
- هذا ما تيسر إيراده، وتهياً إعداداه، وأعان الله تعالى عليه، وما هو إلا محاولة لمقاربة بعض أسرار التوظيف الاستراتيجي المعجز لآلية التمثيل، ولكن تبقى أمثال القرآن الكريم موضوعا خصبا لمزيد من الدرس والبحث، وصدق الله تعالى إذ قال {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضُرْبِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [العنكبوت:43].

- 1 - مجموعة مؤلفين، الحجاج مفهومه ومجالاته، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010، ج1، ص139.
- 2 - ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، د.ت، ج2، ص597.
- 3 - ينظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، لبنان، د.ت، ص238.
- 4 - الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر، د.ت، ص95.
- 5 - جمال الدين بن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج11، ص613.
- 6 - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ط2، دار الفارابي، لبنان، 2007، ص481.
- 7 - الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، دار الكتاب العربي، لبنان، 1407هـ، ج1، ص72.
- 8 - ينظر: مجموعة مؤلفين، الحجاج مفهومه ومجالاته، مرجع سابق، ج2، ص242.
- 9 - ابن القيم، الأمثال في القرآن الكريم، تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان، 1981، ص22.
- 10 - ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق مشهور حسن، دار ابن الجوزي، 1423هـ، ج2، ص425.
- 11 - عمرو صالح، التفكير النقدي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان، 2015، ص128.
- 12 - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص115.
- 13 - مسكويه، الهوامل والشوامل سؤالات أبي حيان التوحيد لأبي علي مسكويه، تحقيق: سيد كسوري، دار الكتب العلمية، لبنان، 2001، ص277.
- 14 - محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1990، ج1، ص198.
- 15 - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص115.
- 16 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 17 - الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، مرجع سابق، ج1، ص72.
- 18 - عبد الرحمن حبنكة الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، 1996، ج1، ص78.
- 19 - ينظر: عادل مصطفى، المغالطات المنطقية، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2007، ص173.
- 20 - أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، لبنان، د.ت، ج1، ص190.
- 21 - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص115.
- 22 - محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، السعودية، د.ت، ج1، ص158، رقم: 793.
- 23 - الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 1418هـ، ج1، ص355.

- ²⁴ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: أبو فهد محمود محمد شاكر، ط3، مطبعة المدني، مصر، دت، ص 106.
- ²⁵ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط2، دار طبية للنشر والتوزيع، السعودية، 1999، ج1، ص 691.
- ²⁶ - عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحي، مؤسسة الرسالة، السعودية، 2000، ص 112.
- ²⁷ - ينظر: فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ط3، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 1420هـ، ج7، ص 40.
- ²⁸ - ابن القيم، تفسير القرآن الكريم، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، لبنان، 1410هـ، ص 158.
- ²⁹ - ينظر: المرجع نفسه، ص 157.
- ³⁰ - الجرجاني، أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص 115.
- ³¹ - ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج1، ص 694.
- ³² - ينظر: فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج7، ص 43 وما بعدها.
- ³³ - الماوردي، النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، لبنان، دت، ج1، ص 339.
- ³⁴ - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج3، ص 44.
- ³⁵ - المرجع نفسه، ج3، ص 49.
- ³⁶ - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، 2008، ص 40.
- ³⁷ - عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص 114.
- ³⁸ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص 122.
- ³⁹ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁴⁰ - المرجع نفسه، ص 129-130.

*** **